الفصل الخامس

التحدى الفكرى و الاستجابة

حينما حاول الأصوليون فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أن يؤكدوا مواقفهم الدينية، واجهوا تحديًا جادًا من قبل الفكر الليبرالى والعلمى الحديث. ولأن ذلك قد حدث فى مجتمع ديمقراطى، فقد نجم عن هذا التحدى جدال مفتوح فى أمريكا. وفى هذا الجدال لم تستطع صلابة الحجج الأصولية والتى وجدت أساسًا لها فى الكتاب المقدس أن تقف على أرض صلبة، وأجبر الأصوليون على التراجع. وفى محاولتهم للتجمع مرة ثانية واستعادة الأرض الخاسرة، كانوا مدركين تمامًا الحاجة لتطوير قوتهم الفكرية وتفوقهم. ولتحقيق هذا الهدف، تبنى وعّاظهم وقادتهم مذهب «متعدد الشعب» كان له الملامح المميزة التالية:

١ ـ الرعاية الواعية لثقافة القراءة على مستوى القاعدة، وتشجيع الكتابة. كان القادة الأصوليون يكتبون بشكل دائم وينشرون الكتب والمقالات. كان الوعاظ أنفسهم يقرأون بتوسع ويناقشون الكتب فى مواعظهم وشجعوا أتباعهم على القراءة. بالإضافة إلى ذلك، انتشرت المجلات الأصولية والجرائد والنشرات بتوسع فى مجتمعاتهم عبر البلاد. «واليوم، فإن إحدى نتائج ذلك أن الكتب المباعة للبروتستانت المسيحيين بشكل دورى، تفوق فى بيعها تلك التى تظهر فى قوائم النيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعًا»[١٢٩].

٢ ـ تأسيس معاهد لاهوتية قوية ومعاهد لدراسة الكتاب المقدس[١٣٠].

أخذ الأصوليون قضية المعرفة مأخذًا جادًا، وبدأوا فى التأكيد على أهمية الوصول إلى مستوى عال من التعليم فى كل المستويات. وكنتيجة لذلك، انتشرت الكليات والمعاهد الأصولية المعتمدة على الجمع بين الدين والتعليم الحديث عبر الولايات المتحدة. كان هناك اهتمام خاص بالمعاهد الثانوية اللاهوتية ومعاهد الكتاب المقدس.

ومع حلول عام ١٩٣٠م، كان معهد موودى للكتاب المقدس قد درب حوالى سبعين ألف طالب لكى يعملوا كقساوسة وموسيقيين تابعين للكنيسة وموجهين تعليميين ومعلمين فى مدارس الأحد، ومبشرين. لقد قام المعهد أيضًا بنشر صحافة قوية، وقام بدعم المؤتمرات، وأدار محطة برامج مسيحية للراديو. كذلك تمتع كل من معهد الكتاب المقدس بلوس أنچليس (BIOLA) ومعهد فولر اللاهوتى بسمعة طيبة. وبين آخر ما يمكن أن يضم للقائمة جامعة ليبرتى، والتى أسسها جيرى فالويل عام ١٩٧١م فى مدينته لينشبرج بڤيرجينيا. كانت الجامعة تحمل شعار: «تحدِّ عقلك... ثم إيمانك»[١٣١].

٣ ـ الهجوم على الليبرالية من خلال تصوير الإنسانية العلمانية بوصفها ديانة.

لقد خسر الأصوليون الجولة أمام الحداثيين فى بداية القرن العشرين على أساس فكرى. لقد كانت مشكلتهم الأساسية أنهم قاموا بتحدى العلوم الحديثة على أساس حقائق الكتاب المقدس بوصفه الحقيقة النهائية. فى النصف الثانى من القرن العشرين، قاموا بتغيير استراتيچيتهم وجادلوا بدلاً من ذلك بأن الأيديولوچيات الليبرالية يعتبرها الفكر العلمانى ديانة[١٣٢]. ولقد كان ذلك يعنى أن الرؤية الليبرالية العالمية والنموذج، جاءت فعليًا من الأسس الفلسفية للفكر العلمانى. ألهم هذا الهجوم على الليبرالية كتبا منشورة تحت العناوين الآتية: المنار المسيحى، الجوهرى، البطل الصليبى، أعمال الملك، الصراع، المدافع، والديناميت[١٣٣].

كان فرانسيس شايفر هو المخطط الرئيسى لهذا الموقف الفكرى[١٣٤]. لقد قام بتأليف نحو ثلاثين كتابًا على مدى حياته، وكان أكثرها تأثيرًا «البيان المسيحى»[١٣٥]، والذى كتبه لخدمة الحركة الإيڤانجليكية، كما قام البيان الشيوعى بخدمة الحركة الشيوعية، ولقد قدم فرانسيس شايفر فى كتابه «البيان المسيحى» عرضا ثانيًا جديدًا ومقنعًا لمبادئ الإيمان المسيحى ـ مكتوب بصيغة مفردات القرن العشرين، حيث أبرز فيه، طبقًا لإدراكه للاحتياجات المعاصرة، دعوة لعمل الحوارية للحوارية المسيحية الراديكالية[١٣٦].

كان هدف شايفر الرئيسى التأسيس لفكرة تفوق الفكر الأصولى المسيحى على الفكر الليبرالى. لقد عمل من أجل هذا الهدف طيلة حياته، وكانت له استراتيچية ذات شعبتين: أولاً: كان يرى نفسه بوصفه مفكرًا أيديولوچيًا للأصولية المسيحية. ثانيًا:

كان نشطًا يعمل من أجل قضية نشر التعليم والوعى بين أفراد شعبه. وفى إطار المهمة التى حمّلها لنفسه، والتى تسعى لتعليم الأصوليين المسيحيين، قام بتشجيع شعبة لتأسيس الجمعيات المسيحية من أجل دراسة الكتاب المقدس والتفكير فى القضايا المهمة. ومن أجلهم قام بنشر دليل الدراسة، وقام بإنتاج الأفلام التعليمية والمسلسلات التليفزيونية. وكنتيجة لذلك، أصبحت جمعية دراسة الكتاب المقدس (CBS) مألوفة فى كل أنحاء الدولة.

وكأيديولوچى، وضع شايفر مكانة الأصولى فى سياق عالمى معاصر من خلال مهاجمة الفكر العلمانى بوصفه الديانة الخاصة بالليبراليين. لقد أشاع مسألة الفكر العلمانى بين الناس بوصفه ديانة هدامة ومعادية للمسيحية، وذلك فى كتبه وخطبه ومن خلال عمله كناشط يدعو لاتخاذ الإجراءات الفعّالة لتحقيق أهدافه الدينية[١٣٧]. لقد كان يعلم أن فكر الحضارة الغربية والتراث الثقافى للفترة الرومانية الإغريقية حتى ذلك الوقت يكمن وراء الفكر العلمانى. كان يعتقد أن الفكر الليبرالى الغربى المعاصر هو قمة ذلك التراث التراكمى. ولهذا، فإن الهجوم على الليبرالية لن يكون مؤثرًا إلا إذا كان يؤسس بشكل واضح للأخطاء التى حدثت فيما يتعلق بالتاريخ الثقافى للحضارة الغربية، بدءًا من اليونانيين حتى تلك اللحظة. لقد أسس لهذا الطرح فى كتابه «كيف ينبغى إذن أن نعيش؟ ـ صعود وانحدار الفكر والثقافة الغربيين». لقد كان يهدف إلى «.. قياس كل السلوكيات الأخرى السائدة ضد الحقيقة المطلقة للإيمان المسيحى». وبالتالى، كان منهجه للفلسفة الإغريقية ـ الرومانية هو أن يقابل بين «ضعفها» ضد «قوة» المسيحية[١٣٨]. لقد تبع شايفر آخرون مثل هال ليندسى، تيموسى لاهاى، أونالى ماكجرو، .. إلخ .. الذين أوضحوا المواقف الأصولية تجاه مختلف القضايا.

أساس القوة بالنسبة للأصولية المسيحية

عند هذه النقطة يبرز بشكل طبيعى السؤال الآتى: ما هى قاعدة القوة التى تستند عليها الأصولية الأمريكية المسيحية؟

يتضمن مصطلح أساس القوة ما يلى:

(١) الفلسفة أومجموعة المعتقدات.

(٢) طبيعة الناس الملتزمين بها.

تمثل قاعدة القوة للأصولية الأمريكية فى مجموعة من البروتستانت يدعون «الإيڤانجليكيون». إن الإيڤانجليكية هى ظاهرة فريدة فى البروتستانتية. على الرغم من ذلك، وينبغى ملاحظة ما يلى:

(أ) كل الإيڤانجليكيين هم بروتستانت، ولكن ليس كل بروتستانتى هو بالضرورة إيڤانجليكيًا.

(ب) يمكن للإيڤانجليكى أن ينتمى لأى طائفة بروتستانتية أو كنيسة رئيسية.

بالمعنى الواسع لها، تنادى الإيڤانجليكية بوحدة المفاهيم البسيطة. طبقا لمارسدن، سيكون البروتستانت المنتمون لأية طائفة إيڤانجليكيين إذا ما قاموا بالتأكيد على التعاليم التالية[١٣٩]:

* «المذهب الإصلاحى للمرجعية الأعلى للكتاب المقدس».

* «الطبيعة التاريخية الحقيقية لإنقاذ الله لعباده والمدونة فى الكتاب المقدس [تجسد الله فى المسيح، وصلب المسيح]».

*«الخلاص الأبدى فقط من خلال الثقة الشخصية فى المسيح».

* «أهمية الإيڤانجليكية والأنشطة التبشيرية».

* «أهمية (الذات) من خلال حياة روحانية متحولة (التحول أو الولادة ثانيًا، أو من جديد)».

لقد حذر الخبراء بأن الأمر سيكون مضللاً إذا تحدثنا عن الإيڤانجليكية كظاهرة موحدة فى جملتها من خلال أخذ مظهر بارز واحد وتعميمه على كل الإيڤانجليكيين. يفضل تيموثى إل. سميث ـ وله باع طويل فى الإيڤانجليكية ـ أن يصفها بأنها كيان من الموزاييك، مدركا التنوع داخل الوحدة[١٤٠].

لقد توسع الإيڤانجليكيون فيما يخص أهمية الذات بشكل متطرف، حيث أخذت الذات معنى جديداً فيما يتعلق بتعاليم الحياة المتحولة روحيًا.

«مع قليل من الاستثناءات، يؤمن المحافظون المتدينون بالتحول، عمل الإيمان والغفران، والذى من خلاله يعبر الآثمون من الخطيئة إلى حالة من الخلاص الدائم. وباستثناءات قليلة، جربوا التحول بأنفسهم، وقد ولدوا ثانية فى لحظات التحول الجذرية، والتى تغير حياتهم كلية. ولهذا فإن التحول (تجربة أن تولد ثانيًا، أو من جديد) يكمن فى جوهر شخصياتهم. تحول تلك التجربة شخصياتهم وتغير حياتهم. والأكثر من ذلك، أنها تعمل كنقطة بداية لبناء حس ليس فقط بالاستقلال الذاتى والهوية، ولكن أيضًا بالنظام الاجتماعى والهدف العملى»[١٤١].

وبهذا المنطق يرى روبرت زواير الفعالية الخاصة باليمين المسيحى بوصفها «سياسة الولادة ثانيًا، أو من جديد»[١٤٢].

ظاهرة التحول التى عرفت بشكل عام بوصفها «الولادة ثانيًا، أو من جديد»، هى جوهر الإيڤانجليكية. يقول ويليام مارتن واصفًا هذا المفهوم بأسلوب بسيط، «. . . لهؤلاء الذين يتداولونه، يشير مصطلح «ولد ثانيًا، أو من جديد» إلى نقطة فى حياتهم حينما بدأوا جديًا بالنظر لأنفسهم باعتبارهم مسيحيين»[١٤٣]. بجانب كونها ظاهرة روحانية، فإن هذه التجربة لها عدد من المعانى الضمنية للفرد، (١) يكتسب الفرد السيطرة على (الذات) بالمقارنة بالحياة التى عاشها فى البداية هائمًا على وجهه، (٢) يكون لديه حس بالانتماء للآخرين الذين مروا أيضًا بتجربة الولادة ثانيًا، أو من جديد. هذا الحسْ بالانتماء هو ظاهرة عبر طائفية. ولهذا يشعر كل الإيڤانجليكيين أنهم أبناء جماعة واحدة بغض النظر عن الكنائس أوالطوائف التى ينتمون إليها، (٣) الشعور بدافع قوى لحث الآخرين على التحول (الآخرون ليسوا فقط المسيحيين فقط ولكن غير المسيحيين أيضًا). وهكذا، تلهم الإيڤانجليكية روحًا تبشيرية قوية جدًا بين الأصوليين وهى مصدر قوى للوحدة عبر الطائفية بينهم.

فى الحملة الرئاسية لعام ١٩٧٦م، أعلن المرشح الديمقراطى چيمى كارتر أنه مسيحى ولد ثانيًا، أو من جديد. وكان من شأن هذا الإعلان أن بدأ الجدال العام الكبير عن كون المرء «مولودًا ثانيًا، أو من جديد». لم تكن أغلبية الناس تعلم الكثير عن هذه الظاهرة فى ذلك الوقت، ولهذا كان هناك شغف عام لمعرفة هذا الأمر. فى صلاة عامة

أذيعت عبر التليفزيون فى عام ١٩٧٦م، شرح بيلى جراهام أصل العبارة المستقى من الكتاب المقدس. وقد أشار ويليام مارتن لهذا الشرح كما يلى: «فى الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا، جاء ما يلى: «غير أن إنسانًا من الفريسيين اسمه نيقوديموس، وهو عضو فى المجلس اليهودى، جاء إلى يسوع ليلا وقال له: «يا معلم، نعلم أنك جئت من الله معلِّمًا؛ لأنه لا يقدر أحد أن يعمل ما تعمل من آيات إلا إذا كان الله معه». فأجابه يسوع: «الحق الحق أقول لك: لا أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد». فسأله نيقوديموس: «كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو كبير السن؟ ألعله يستطيع أن يدخل بطن أمه ثانية ثم يولد؟» أجابه يسوع: «الحق الحق أقول لك: لا يمكن أن يدخل أحدٌ ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح. فالمولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح»[١٤٤]. إنجيل يوحنا: ٣: ١ ـ ٦.

يمثل فهم الخطيئة، ثم أن يتم إنقاذك من خلال ولادتك ثانيًا، أو من جديد، خبرة مشتركة بين كل الإيڤانجليكيين، وتساهم بشكل قوى جدّا فى تشكيل وجهات نظرهم فى المجتمع وما حولهم. «بالنسبة لفالويل الأصولى، الخطيئة هى أمر أصلى وموروث، تناقلته البشرية من آدم منذ بداية العالم»[١٤٥]. يحكى فالويل عن جده الذى كان «مجاهرًا بالإلحاد» وكان يكره الوعّاظ ويرفض الذهاب للكنيسة. قتل والد جيرى فالويل ويدعى كيرى فالويل أخاه فى مشاجرة كلامية فى نطاق الأسرة، ولم يشف قط من الشعور بالذنب. إن المعاناة من هذا الشعور بالذنب جعلت منه مدمنًا للكحول. يشعر فالويل أنه ورث آثام والده. «إنه يفكر فى حياته الخاصة وكأنها صراع مستمر مع الشيطان»[١٤٦].

هذا الوعى بالخطيئة سواء كان يخص المرء ذاته أو المجتمع، هو الذى يجلب كل «المولودين ثانيًا» معًا ويمنحهم رابطة طبيعية مشتركة للاتحاد كجماعة لقيادة المعركة ضد الخطيئة فى المجتمع وحول العالم. على الرغم من ذلك، كان الإيڤانجليكيون كأفراد مشتتين ولم يكن لهم أية بنية هيكلية رسمية.

* * *